تضاريس

صالح الأشقر

إلى منى

كان وادي قد جاء من هناك مُبعداً. ألقى كلَّ أحماله على أرض المطار اللامعة، واستقبلته رائحةُ المدينة وأصواتها السافرة. وحين اعتلى طرقاتها كان يفكّر بوطن جديد، ويخفي فوق دقّات قلبه تلك الليالي الطويلةَ الماضية، وجدرانَ غرفته وأشياءها إذ تنغمس في مؤامرة وتصرخ في وجهه: ابتعد.. احملْ نفسَك وغادرْ.

ألا تسمع! لم يعد لك مقام هنا!

وكان حين يحاصَرُ بالحزن والخيبة يخرج إلى الشوارع، لكنّ أصوات الجدران والأشياء تتبعه في وجوه الآخرين وعيونهم وتطاردهُ.

صارت الأيّام الأولى في الغرفة الجديدة، وفي الوطن الجديد، تمضي وئيدة.

أخذ وادي يفكّر في نفسه ملياً، ولأوّل مرّة منذ زمن بعيد.. يكتشف ذاته المطمورة من جديد. وأصبح للوقت معنى آخر.

ينهض عند مطلع الفجر، ويفتح النوافذ، وبعد أن يحتسي قهوته يتهيّأ للكتابة. يقول لنفسه وبوضوح: سأكتب عن كل شيء. سأفضح نفسي وأُفشي أسرارها وأستبيح أرضها وأغوص في الأعماق المحرَّمة والرحبة. سأنزع عنها الأوراقَ واحدةً واحدة. وأفكّ أغلالها لأراها حرّة عارية تتجوّل أمام عيني.

كان في وسط المدينة الجديدة مقهى وادعٌ، تشدُّك إليه رائحةُ البحر. المقاعد بيضاء، وكل ما يحيط بك غارقٌ في البياض: المناديل والصحون والكؤوس وحتى الابتسامات. كنت أسمّيه في النهار المقهى الأبيضَ، وأسمّيه في المساء المقهى البحريَّ. فإذا أشرقت الشمسُ جرّتني خطواتي السعيدة إليه. وحين أجلس وأغمض عينيّ قليلاً وأتنفّس بعمق ولذّة، يقترب النادلُ وينحني بأدب جمّ ويقول: «صباحك جميل أيها الطائر الشرقيّ». فأفتح عينَيّ وأبتسم ابتسامة بيضاء وأقول: «قهوة فوّاحة يا سيّدي». وبعد قليل يتوافد الروّاد على مهل، ويتعالى الكلام والضحك وتطفو البهجة إلى أن يغرق المقهى في الضجيج والمساء.

هنا للقهوة طعمٌ آخر لا يزول، ورائحةٌ طاغيةٌ تحرّض الشاربين على الحديث والكلام والتعارف. قال الذي كان إلى جانبي: أراك تلجأ إلى هنا كل يوم. هل تحب هذا المقهى؟

يأسرني هذا المكان، وتفاصيله العارية تجتذبني، وطرقاتُ المدينة مفتوحة، أبدأ تتلوّى وأنا معها أتلوّى. ولكنْ دون أن أدري أجدني هنا.. مستقّراً ولاجئاً.

الأشياء هنا أليفة وناطقة وجميلة، وتستحوذ عليك وتملأ الفراغاتِ بداخلك. كأن تلتقي الوردةُ باسمها المفقود وبلونها الضائع.. أو تجتذبَ المقاعدُ حديثَ البيوت.. أو أن ينغمرَ البحرُ بالماء ويحتلَّ الزبدُ المتوهجُ رمالَ الأرض. إنّه عناق جميل يغري الروحَ والجسد. كأنّ الأشياء هنا قد تخلّت عن صمتها الأبديّ فصارت تنطق بلغة مفهومة. وعندما يعلو صخبُ الناس الجميل يتعالى في داخلي فرح غزير، ويسقط عن وجهي وروحي آخرُ الأقنعة.

يكتب وادي من أوّل السطر:

كنت صغيراً أتهجّأُ خطواتي الأولى بينهم. وجدوني هكذا: عفيف الذاكرة.. فرحوا وأخذوا يصبّون في رأسي الصغير جداولَ من الكلمات التي شربوها منذ قرون. تخاطفوني بقسوة وألبسوني قناعاً أخذ ينمو معي ويتكاثر.

ثم علّموني ونقشوا على جدران عقلي كيف أصنع أقنعتي بيديّ، ومتى ألبس كلٌ واحد. هذا قناعٌ أرتديه حين أخرج من بيتي، أبدو به وفيه واحداً مثلهم: فالملامح والصوت والحركة هي نفسها؛ وذاك ألبسُه في حضرة أبي؛ وذلك للنهار؛ وآخر لِلَّيل.

حملتُ أقنعتي على كتفي ومضيت أغذُّ السيرَ في الحياة. كنت مشدوداً بقوّة إليها. فأصبحتُ أعرف مواقيتها وألوانها بدقّة ونظام صارم، وأعرف متى أبدّلها. وكنت أرى الآخرين مثلي قد انهمكوا في علاقات وطيدة مع أقنعتهم وراحوا يحافظون عليها بشغف شديد. مرّة علّقتُ قناعَ الخروج على باب غرفتي ورحت ألهو في شارع قريب. ففرّ الناسُ من حولي وقالوا هذا به مسٌّ من الجنون.. إذ كيف يمشي عارياً بلا قناع؟ ركضتُ خائفاً إلى غرفتي ولبست كلَّ أقنعتي واحتَضنتُها ونمتُ مطمئناً.

ومرّة نسيتُ قناعي في حضرة امرأة تفوح عيناها بلون القهوة.. وقلت لها يا لعينيك الجميلتين، فنهرتني أمي وقالتْ لها بصوت خفيض إنّني جاهل صغير. أذكر أنّي آخرَ الليل بكيتُ وحلمتُ بعينين جميلتين. وكنت أسير فوق شارع بعيد عن بيتنا، وفجأة لمستْ يدٌ ساخنةٌ وثقيلةٌ وجهيَ الصغيرَ، ولما رفعتُ رأسي كلَّه أبصرتُ وجهاً تنطلقُ منه أسرابُ شياطين جائعةٍ. صرختُ ورحتُ أعدو مذعوراً، وصارت الأشباحُ تلاحقني كلّما فكرتُ بِهَتْكِ أقنعتي!

ها أنا الآن هنا تقودني الطرقاتُ.. والطرقات طويلةٌ وغارقةٌ بالأشجار والماء والمقاعد والضجيج والسموات والأرض والأقمار والشمس والليل والنهار والغيوم والبشر.

قال الذي إلى جانبي: كأنّك تستقبلُ الحياةَ للمرّة الأُولى!

قلت له ولنفسي: أنت تعيش الحياة مرّة واحدة! يكتب وادي في منتصف الصفحة:

الوحدة الشريرة

أنهض باكراً، وأتلفّتُ حولي ولا أحَد إلا أنا. أشعر بالوحدة. لا صوت، لا حركة ولا رائحة. كلّ ما حولي ساكن ومَيّت. أصغي إلى الخارج ولا أسمع دبيبَ الحياة فأذرفُ دموعاً مالحةً.

أتمنّى أن تبزغَ بجانبي امرأةٌ تحكي قصةَ حياتها. تقول إنّها تحبّ واحداً يعطيها القمرَ والشمسَ والأنهارَ والجداول والصحراء والفضاءات والحدائق، وإنها تصير ملكةً طاغيةً مستبدّةً. تناديني أن أقوم واقفاً ومعتمراً روحيَ المخبوءةَ، وأنفضُ عنها ظلالَ الحزن والوحدة والتعب. أحتمي بصوتها من وهج الآخرين وضجيجهم وشموسهم. وتقول لي إنّك الأوّل، وما بعدك أحد. وتقول ما لم تقلْهُ واحدةٌ لواحد، كأن تقول «خذني إلى الأعماق المبهمة.. إلى تلك الغابات البكر التي لم تطأها روحٌ ولا جسد.. إلى تلك المصبّات الغامضة والمضيئة. خذني إلى حديث الشوارع والنوافذ المفتوحة». وتقول: «أريد أن أراك مرتفقاً يدَ امرأةٍ هي أنا، وتخاصرها أمام عيون كلِّ البشر». وتقول: «خذْني إلى شتاء ليس به برد، وإلى دفءٍ بلا أغطية، وأريد أن نسلُكَ طريقاً أعمى وفاقد البصيرة.. طريقاً أنت وأنا نجدلُ منعطفاته ونهاياته». وتقول: ثم نفعل ما نريد! يشهق وادي ويقول: يا لهذه الوحدة الشريرة.

يقوم ويمشي إلى النافذة ويفتحها. يدخل هواءٌ بارد. ينظر إلى السماء ويقول بصوتٍ فرح: سوف ينزلُ المطر. أخذ يدور في الغرفة وشعر أنه بدأ يألفها: النافذة الواسعة التي تطلّ على شارع جميل للمشاة.. الستائر السميكة بلونها الأخضر الخفي.. الجدران البيضاء العارية.. وهذه الموسيقى التي لا تهدأ.

اقترب الذي كان إلى جانبي وقال بعطف: يبدو أنّك لا تنام كثيراً.. عيناك تقولان ذلك!

يجلس وادي ويكتب من أول السطر:

مدينتي مختبئة وغارقة وسط الصحراء وصامتة. جدرانها عاليةٌ وعمياء. وهي لا تترك عاداتها القديمة تتشبّث بها وتعضّ عليها بالنواجذ. مدينتي التي أحبّها لا تسفح دمعةً واحدة من أجلي. أبحث عنها في النهار فلا أراها.. وفي المساء تفرُّ من شوارعها وأنوارها وحدائقها وأشجارها الطفيفة وتغيب بين الجدران. مدينة لا تسمع ولا ترى. مدينة تحتضر. كل من يأتي إليها أو يمرّ بها عليه أن يعلّق ذاته عند أبواب موانئها الظالمة ويرتدي ذاتاً أخرى.

شوارعها خاوية ومتجّهمة، وأرصفتها لا تلامس أصوات المارّة والعابرين. مدينتي لا تشبه مدينة أخرى.. مدينةٌ يتيمةٌ، وقد خُلِقَت جرْدَاء، لا تغريك أو تغويك، ولا تثير فيك هاجسَ الشعر والغناء والنساء.

هي مغلقة ولا تعرف غير أن تُفرغَك بصمت وقسوة.

يكتب وادي من أول السطر:

البارحة كانت ليلةً فريدة. ليلة أخرى. ليلة لم تولَد قبلها ليلة. لم يكن هناك وجه حزين. السماء مختبئة فوق الغيوم، والبحر يحرس الرمال والأشجار، والناس في أمان، والدنيا مبذولة بسخاء ويسر. كنت سعيداً، وحين تتملّكني النشوة الشديدة أتبع هوى نفسي وأرتفقها إلى الماء. وأقول يا لهذه المدينة السافرة!

هناك مدن تعشقها من أول وهلة.. تناديك لمعاشرتها بشغف وصخب.. تمنحك داخلها وأرصفتَها وليلَها وشمسَها.. تدعُك تتجرّع جسدَها شبراً شبراً.. ترتمي في أحضانها حتى مطلع الفجر ولا يداهمك الخوف.. تمشي وتغني في أرجائها، وتترك في منعطفاتها ظلالاً من صوتك ورائحتك وجنونك، وحين تغادرها تبكي وتحملها معك.

أنت الآن تسير في الشارع.. عيناك مفتوحتان على وسعهما.. مخطوطٌ على وجهك ابتسامة صافية، وترى كلَّ شيء: ترى الذي لم تره هناك، ترى الواحد يضحك من قلبه وقد يبكي ويرقص ويغنّي ويصرخ بأعلى صوته وينفعل ويبدع ويرسم حتى على صفحة الشارع.

جلستُ على مقعدٍ خشبي، خلفي أشجار كثيفة والبحر. أقبَلَتْ نحوي فتاةٌ جميلةٌ تحمل على كتفها صندوقاً وكرسياً صغيراً، ابتسمتْ وابتسمتُ أنا بسرعة. قالت: هل ترغب أن أرسمَك؟ ثم أضافت وهي تلقي بأدواتها على الأرض: وضعك مناسب ومثالي، سوف تكون لوحة جيّدة.. كأنّك في حالة تأمّل! ما رأيك؟

جلستْ وأخذت تتأملّني قليلاً وقالت ويداها تشيران إلى الفضاء: سأرسمك بالأسود والأبيض. الألوان لا تعكس الحقيقة دائماً.

ابتعدتْ بضعَ خطوات.. سحبتِ الكرسي وجلستْ وشرعتْ ترسمني.

كان وجهُها صافياً.. جميلاً كقمر. عيناها منوّرتان.. يفيض منهما نورٌ غامضٌ وساحر.. جزيرتان تتلألآن من بعيد.. غارقتان في نهر أخضر.. تقولان شعراً جاهلياً قبل الكتابة والأساطير. فيهما المأساة والعيد.. الجنّة والسعير.. فيهما النصفُ الخالي والمطر. شعرها منثور، على شفا جبينها عروقُ رمل أصفر، إذا تحرّكت تتموّج الرمالُ وأنا في عمقها أغرق.

كنت أراقبها وفجأة كفَّتْ عن الرسم وقالت: لمَ لا تستقرّ ملامحُك على حال؟

يكتب وادي من أول السطر:

كنت صغيراً.. وكانت «نورة» دائماً هناك. تمشي بوجهها المستدير الأسمر، وجدائلها الطويلة، ورائحة الحنّاء التي لا تنقطع، والعنبر. بعد أيّام عديدة وسريعة اختفى العنبر والحنّاء وصارت نورة طيفاً وحكايةً وأسطورة.

قالوا إنّها أخذتْ تحدِّق في السماء وترسم على كفَّيْها النجومَ الساطعات، فامتلأ جسدها بالبثور حتى غطّتها ثم ماتت. وقيل إنّها دلقت لبناً طازجاً فوق أرض نجسة فتحوّلت إلى قردة باكية وسجينة. وقالوا إنّها أبصرتْ وجهَها المستدير والأسمر في عين ماءٍ ففرحت وسقطت في لجّة الماء.

وقالوا إنّها تمرّدت على بيتها فذبحوها ورشقوا دمها على الجدران. وقالوا إنّ والدها تبعها خلسة ذات ليلة ربيعية، ورآها تتبرّج أمام ثعبان يحرسُ كهفاً في عمقه نبعٌ صاف، فقطّعها إرباً وألقاها في الماء.

لا أدري يا نورة لماذا كلّما تذكّرتُ وجهَك الأسمر أرغبُ في البكاء، وأتمنّى أن أملكَ كلَّ الدموع وأبذلها مرّةً واحدة وأستريح. أتمنّى يا نورة أن تنهمر كلُّ العيون على مصاريعها، وتنغمرَ الأرض ويجتاحَها الطوفان وانتَهي.

كلّما تذكّرتك جاءني رجل يقول لي: أنتَ من طين وهي من عسْجَد. أنت من أرض وهي من فضاء. وأسمع صوتَه يقول: أنت لن تنالها أبداً!

قام الذي كان إلى جانبي وقال: ألا ترى.. سوف تمطر السماء.. عليك أن تمضي إلى البيت!

يكتب وادي من أوّل السطر:

بكَت السماء.. وعلّقتُ لوحتي على الجدار العاري.. وكان في عينيَّ السوداوين حنينٌ وبريقٌ غامض مدثَّرٌ بقناع شفيف.

الرياض